

مفارقة الخير والشر في ثيوديسيا القديس أوغسطين

آية الدسوقي عباس حلمي الدسوقي

باحثة ماجستير في الفلسفة القديمة وفلسفة العصور الوسطى
بقسم الفلسفة - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

• • •

نحن لا نولد بكامل تكويننا، بل حاملين في
داخلنا الخير والشر. لقد ولدنا دون فضيلة
وكذلك دون رذيلة، وقبل أن نمارس إرادتنا
الشخصية لا يوجد شيء فينا كبشر إلا ما
وضعه الله في داخلنا.

(ببلاچيوس، في أوغسطين، عن الخطيئة
الأولى، ١٤ "القرن الخامس")

• • •

مفارقة الخير والشر في ثيوديسيا القديس أوغسطين

تمهيد:

يقول اثناسيوس السكندري في كتابه "في تجسد الكلمة": "الشر هو اللاكينونة والخير هو الكينونة، نظرًا لكونه صادرًا عن الله الذي هو كائن." خلق الله الإنسان بإرادة حرة كي يختار فعل الخير أو الشر، وحين يختار فعلًا شريرًا يدخل الشر إلى العالم بفعل الإنسان المستقل تمامًا عن الله؛ ليجني الإنسان ثمار أفعاله. فالخير إذن لا يوجد في العالم نتيجة الرضا الإلهي، ولا يوجد الشر كسخط من الله على ما اقترفه البشر من خطايا وآثام؛ ذلك لأن حياة الإنسان لا قيمة لها دون الصراع الأزلي بين الخير والشر.

فالخير والشر ليسا إلا نوعين مختلفين من الخير، فلا يوجد خير محض خاليًا من أي شر، ولا شر محض خاليًا من أي خير، فكلٍ منهما يستمد كينونته من حيث علاقته بالآخر، فلولا وجود الشر ما كان للخير وجود، ولحقق الإنسان الخير بطريقة آلية؛ نظرًا لأنه لا يملك أدنى قدر من الحرية.

وقد فطن بعض فلاسفة العصور الوسطى إلى أن الإرادة الإنسانية خيرة في حد ذاتها، وأن وجود الله لا يتنافى مع وجود الشر، وإنما ينشأ الشر عن إساءة استخدام الإنسان لهذه الحرية. ومع هبة الحرية هذه وردت إمكانية الخطيئة وفعل الشرور والآثام؛ لكونها حرية مخلوقة ناقصة، وبالتالي فهي عرضة للشر والفساد؛ لأن خيرها يفتقر إلى الثبات والسمو لكونها تقع في منزلة دون منزلة الله.

ومن هنا ظلت مفارقة الخير والشر مشكلة محورية في ميتافيزيقا الدين عند القديس أوغسطين (St. Augustine) (354-430م) حيث ذهب إلى أن الشر ليس جوهرًا، بل إنه غياب الخير، وانحراف الإرادة المخلوقة عن الخير الثابت.

وقد قضى أوغسطين تسع سنوات معتقًا للثنائية المانوية القائلة بالهين: إله النور أو الخير ويمثله "أهورامزدا"، وإله الظلام أو الشر ويمثله "أهريمان"، حيث رأى فيها وسيلة لفهم العالم المركب من الخير والشر.

ثم اتجه إلى الأفلاطونية المحدثة التي غيرت اتجاهه الفكري بعد مطالعته لكتب الأفلاطونيين وبخاصة "تاسوعات أفلوطين" التي فسرت وجود الشر في العالم على أن مصدره المادة.

وبعد ذلك انتقل أوغسطين إلى الفكر المسيحي الذي ينادى بالخير الأسمى، ومن هنا حاول اللاهوت الأوغسطيني أن يقدم حلًا معقولًا لمعضلة وجود الشر في العالم، وهو الهدف من تلك الدراسة.

وعلى ذلك، فإن إشكالية البحث تكمن في محاولة الإجابة على السؤال المحوري الآتي: ما الحكمة الإلهية من وجود الشر في العالم باعتبار أن الخير هو جوهر الوجود الإنساني في ضوء ثيوديسيا^(*) أوغسطين؟

Theodicy^(*) كلمة تتكون من مقطعين يونانيين: "ثيوس Theos" بمعنى إله، و"ديكي dike" بمعنى عدل، ومعناها العدالة الإلهية. وقد ظهرت هذه الكلمة لأول مرة بقلم الفيلسوف الألماني ليبنتز عام ١٧١٠م لتكون عنواناً لكتابه (وعنوانه الفرعي هو حول خيرية الله وحرية الإنسان وأصل الشر)، وهو الكتاب الرئيس الوحيد في الفلسفة الذي نشره ليبنتز خلال حياته، نتيجة لمناقشات ليبنتز مع صوفي شارلوت، ملكة بروسيا (توفيت ١٧٠٥م)، عن خيرية الله، وحرية الإرادة، وأصل الشر. وهو كتاب لا يسير على نظام معين، وذو نطاق واسع في تناوله، وموجه إلى غير المتخصصين. ومع ذلك، سرعان ما أصبح رائجاً جداً، ومن خلال هذا الكتاب دخل مصطلح "ثيوديسيا" في مفرداتنا. وعلى الرغم من أنه قدم المصطلح في عنوان كتابه، فهو لم يستخدم المصطلح ولم يُعرّفه، حيث إن اسم مؤلف الكتاب لم يُذكر عند نشره لأول مرة، حتى إن بعض الأشخاص أساءوا فهم كلمة "Théodicée" متصورين أنها اسم مستعار للكاتب.

في كتابه Causa Dei [أسباب وجود الإله]، وهو موجز شبه قانوني نُشر بشكل مستقل في العام نفسه الذي نشر فيه كتاب الثيوديسيا، ودرج في هذا الأخير كملحق له بدءاً من الإصدار الثاني (١٧١٢م) فصاعداً، يدافع ليبنتز عن العدالة الإلهية في مواجهة الشر الموجود بالعالم كحماٍ يدافع عن موكله المتهم في محكمة قانونية. هنا، تمثل الثيوديسيا دفاعاً عن الله ضد التهم الناجمة عن رؤية الشر الطبيعي والأخلاقي. من ناحية أخرى، في خطاب يعود لعام ١٧١٢م، يُعرّف ليبنتز مصطلح "الثيوديسيا" بأنه "نوع من العلم، بمعنى، مذهب يتعلق بالعدل الإلهي- أي يتعلق بحكمة الله وخيريته". هنا تصبح الثيوديسيا عبارة عن استقصاء حول كيف يمكن أن يكون وجود إله حكيم وخير- أي إله يحمل الصفات العظيمة المنسوبة إلى الله في التراث المسيحي- متوافقاً مع وجود الشر في العالم. يتجلى التناقض بين هذين النهجين تجاه موضوع الثيوديسيا هو أن الأول مشروع تبريري يهدف إلى الدفاع عن الله، بينما الثاني مشروع منحا، ومحاي، وفلسفي، يبحث في العلاقة بين الله والشر. غني عن القول إنه في الممارسة العملية لا يمكن تطبيق هذا التمييز دائماً بطريقة واضحة، وغالباً ما نقابل أطروحات فلسفية حول مشكلة الشر لها أغراض تبريرية إلى حد ما، أو توجهات فاعية تستخدم وسائل الجدل الفلسفي. ومع ذلك يمكن من حيث المبدأ اعتبار كل من الدفاع غير الفلسفي عن الله، والنظرة "المحايدة" لمشكلة الشر، من "الثيوديسيا".

في القرن التاسع عشر، اكتسب مصطلح "الثيوديسيا"- الغامض بالفعل- معنى ثالثاً. واستُخدم مصطلح الثيوديسيا كمسمى للاهوت العقلاني، الذي يضم أدلة وجود الله، والصفات الرئيسية لله، والعناية الإلهية، ومشكلة الشر، ومصير الإنسان، وأدلة خلود النفس. ولكلمة "ثيوديسيا" معانٍ ثلاثة:

- ١- الدراسة الفلسفية لعلاقة الإله بالشر.
- ٢- الدفاع عن العدالة الإلهية بالرغم من وجود الشر في خلق الله.
- ٣- اللاهوت العقلاني.

في أوائل القرن العشرين، قام ماكس فيبر، في كتابه "Das Problem der Theodizee"، بتوسيع مفهوم الثيوديسيا في اتجاه آخر، من خلال الإدعاء بأنه حينما ظهر كل من التوحيد والأخلاق، قام البشر- عاجلاً أم آجلاً- بسن قواعدهم الأخلاقية المتعلقة بالإله الواحد ومن ثم تظهر مشكلة الثيوديسيا.

- ١- قبل القرن الثامن عشر، كانت مشكلة الشر مشكلة تخص الإيمان المسيحي: إنها مشكلة إيجاد تفسير لوجود الشر، على الرغم من خيرية الله وقدرته المطلقة. وقد أصبحت مشكلة الشر من ليبنتز فصاعداً مشكلة في الإيمان المسيحي. ومن وقتها أصبح العدل الإلهي، بل وحتى وجود الله، على المحك في مناقشات مشكلة الشر.
 - ٢- قبل القرن الثامن عشر، أدى إدراك مشكلة الشر إلى جعل الإنسان يشك في نفسه. إن فساد إرادتنا هو الذي أدخل الشر إلى العالم، وفساد عقولنا هو الذي يجعل جهودنا لحل تلك المشكلة عقيمة. إن هدى الله وحده يمكنه إصلاح فساد إرادتنا وتطهير رؤيتنا، وبالتالي يعافينا ويساعدنا على نيل البركة. من ليبنتز فصاعداً، لم يعد عقل عالم اللاهوت المستقل ذاتياً موضع شك، بل أصبح هذا العقل يقوده إلى الشك في وجود الله وفي عدله.
 - ٣- قبل القرن الثامن عشر، كان لمشكلة الشر محور عملي تركز عليه: كيف يمكننا تحقيق السعادة على الرغم من وجود الشر؟ من ليبنتز فصاعداً، أصبحت مشكلة الشر مشروعاً نظرياً: إنه المحاولة العقلانية لإظهار مدى توافق وجود الإله المسيحي مع وجود الشر في العالم. هذا المشروع النظري ليس له أي آثار عملية مباشرة.
 - ٤- قبل القرن الثامن عشر، كان التفكير في مشكلة الشر يهدف إلى الانتصار على المسيحيين الذين يؤمنون بمعتقدات كاذبة، بينما من ليبنتز فصاعداً، تهدف الثيوديسيا إلى الانتصار على غير المؤمنين.
- إن كلمة ثيوديسيا، المستمدة من الجمع بين الكلمتين اليونانيتين "الإله" و "العدالة"، تدل على مهمة نشر الحجج التي تدافع عن تماسك الإيمان بالإله في مواجهة مشكلة الشر. إذا كان الإله خيراً، وكلّي القدرة، وحكيماً، وإذا كان الشر شراً، فكيف يمكن تفسير الفعل الإلهي، أو عدم الفعل، في مواجهة الشر؟

قبل عصر التنوير، كان التركيز ينصب على تماسك الإيمان بسيادة الإله وخيريته بين المؤمنين. لكن هذا التركيز بدأ على نحو متزايد خلال الحقبة الحديثة في التحول نحو الدفاع عن الاعتقاد الإيماني في مواجهة حقيقة الشر. تطبق "الثيوديسيا" بشكل خاص على هذا الجانب الثاني.

ومع ذلك، فقد اكتسب انتشار المصطلح اليوم دلالات ازدرائية ومحابذة. فالعديد من الكُتّاب يعربون عن انزعاجهم، لأنهم يرون أن المناقشات الفلسفية والمنطقية حول قواعد القدرة المطلقة، والمجادلات الدفاعية حول حرية الإرادة، كان ينبغي أن تصبح الوسيلة الرئيسة للتعامل مع آلام الشر الوجودية.

يمثل كتاب تيرنس تيلي Terrence Tilley "شرور الثيوديسيا" The Evils of Theodicy التعبير الكلاسيكي عن هذا الانزعاج. يسعى تيلي إلى إعادة صياغة الحوار من حيث الممارسات الكلامية speech acts بدلاً من الحجج أو المقترحات. يدافع فينسنت برومر Vincent Brummer أيضاً عن التوقيت الزمني لاستخدام الثيوديسيا التقليدية. حيث يمكن القول إن الحوار متعدد الأصوات، كما يظهر في "سفر أيوب"، وفي رواية "الإخوة كارامازوف" لدوستوفسكي، يقدم مقارنة تكاملية complementary approach لمشكلة الشر. فكل من النهج الوجودي والنهج المنطقي التقليدي له مكانه. ومع ذلك، كما يقول تيلي، يجب توخي الحذر عندما يقوم البعض ببساطة بزج حجج أو غسطين والأكويني في هيئة "ثيوديسيا" ما بعد التنوير.

الثيوديسيا قبل ليننتز:
إذا كانت الثيوديسيا حقاً حديثة العهد، وإذا كان ينبغي حقاً أن نؤكد على أنه "أينما وجدت الثيوديسيا، وُجدت الحداثة Modernity"، إذن فلا يمكن تطبيق مصطلح "الثيوديسيا" بشكل مباشر على الفكر الذي تناول مسألة الشر فيما قبل الحقبة الحديثة. لم تحظ هذه النتيجة بالقبول العام حتى الآن، لكنها تلقى موافقة متزايدة في فلسفة الدين القارية Continental. يتضح ذلك من خلال المثالين التاليين:

أولاً: أعطت الموسوعة الألمانية الرسمية Theologische Realenzyklopädie مؤخرًا على أن مصطلح "الثيوديسيا" يخص ليننتز وأولئك الذين جاءوا من بعده. وعند الحديث عن تناولوا مشكلة الشر في حقب سابقة، يجب أن نستخدم مصطلح Theodicy-analogies أو "أشباه الثيوديسيا" (بالألمانية: "Theodizee-Analogien")، لأن هذه ليست ثيوديسيات بالمعنى الدقيق للكلمة، ولكنها مفاهيم تشبه إلى حد ما الثيوديسيات. ثانياً: كتاب تعليمي حديث عن مشكلة الشر في فلسفة الدين، نشرته دار بلاكويل، ومن المرجح أن يصبح أحد الكتب التعليمية الأساسية في هذا المجال، يصنف النصوص السابقة للحداثة تحت عناوين "البدايات" و"ما قبل الثيوديسيا". الثيوديسيا في الكتاب المقدس:

في حين أن فلاسفة الدين غالبًا ما يحدون من نطاق تطبيق مصطلح "ثيوديسيا" ليقصر على فكر التنوير وما بعد التنوير، فإن الباحثين في الكتاب المقدس يطبقون هذا المصطلح دون تردد على الكتاب المقدس وعلى التراث الأدبي المعاصر له. وأصبحت عنواناً لمذهب ديني فلسفي يبرر للإله سماحه بوجود الشر في العالم، وتشكل الثيوديسيا جزءاً مهماً من أي نسق لاهوتي، فهي تنزع عن الإله مسئولية وجود الشر في العالم، وقد تسوغه كعقاب رباني على ما اقترفه البشر من رذائل وآثام.

هناك العديد من أنواع الثيوديسيا التي اندلعت حولها المناقشات الصاخبة؛ منها:

١. يُقال إن الشرور تمثل ضرورة منطقية لتحقيق خير أعظم (مثل المشقة التي يتكدها المرء في سبيل تحقيق النموذج الكامل لفضائل معينة)، لذلك حتى الموجود كلي القدرة (أي الموجود الذي ليس لفته حدود أو شروط منطقية تقريباً) لا بد أن يكون لديه مبرر كاف لوجود الشرور أو السماح بوقوعها من أجل تحقيق الخير. اقترح ليننتز، في كتابه "ثيوديسيا" (١٧١٠م)، دفاعاً شاملاً عن العدل الإلهي. فمن وجهة نظره، كان لدى الله سبب وجيه لإقامة العالم الحقيقي، رغم كل الشرور التي فيه، لأنه أفضل عالم من بين جميع العوالم الممكنة، وكل الشرور الفعلية هي مكونات أساسية فيه، بحيث إن إغفال أي منها سيؤدي إلى إفساد نظام العالم كله. بصرف النظر عن القضية المتعلقة بصحة القول بأن الشر ضروري لتحقيق خير أكبر، فإن هذا النهج يواجه تساؤلاً حول ما إذا كان يفترض بالخطأ أن الغاية تبرر الوسيلة.

٢. هناك نوع مهم من الثيوديسيا يرد بعض الشرور، أو جميعها، إلى الأفعال الحرة الشريرة الصادرة من البشر أو من الموجودات الأخرى (مثل الملائكة) التي خلقها الله. يفترض مؤيدو هذا النهج أن الفعل الحر في المخلوقات له قيمة كبيرة، وأنه غير متوافق من الناحية المنطقية مع السيطرة السببية الإلهية على أفعال المخلوقات. ويترتب على ذلك أن عدم تدخل الله لمنع الذنوب أمر ضروري لصالح الحرية المخلوقة، على الرغم من أن الخطايا نفسها ليست ضرورية. يُقدم هذا المقترح كسبب أخلاقي كاف لعدم قيام الله بمنع الشرور. وتعد من المهام الكبرى لهذا النوع من الثيوديسيا أن يفسر لماذا يسمح الله بوجود تلك الشرور، التي لا تمثل في ذاتها اختيارات حرة من المخلوقات، ولكنها تمثل نتائج لهذه الاختيارات.

٣. هناك نوع آخر من الثيوديسيا، وهو قديم أو مؤثر حالياً بين اللاهوتيين، على الرغم من كونه أقل اتفاقاً مع التقاليد الأرثوذكسية في الديانات التوحيدية الرئيسة، يقترح هذا الدفاع عن خيرية الله التخلي عن الاعتقاد بأن الإله قادر على كل شيء. فوفقاً لهذا الرأي، يعد الإله، من الناحية السببية وليس المنطقية، غير قادر على منع العديد من الشرور خلال عمله على خلق الخير الأعظم. المؤيد الرئيس لهذا النهج في الوقت الحاضر هو الحركة المعروفة باسم "اللاهوت العملياتي" Process Theology، والمستوحاة من كتابات الفريد وابتهد. وهو يعتمد على نظرية ميتافيزيقية معقدة حول طبيعة العلاقات السببية.

وينتفرع من هذا التساؤل عدة أسئلة فرعية يمكن إجمالها فيما يلي:

- ١- ما النظرة المسيحية لأنطولوجيا الخير والشر؟
 - ٢- هل الشر هو نتيجة غياب الخير أم أن مسألة الخير والشر موضع اختبار للطبيعة البشرية الحرة؟
 - ٣- كيف يشكل وجود الشر في العالم مشكلة فلسفية لاهوتية؟
 - ٤- هل يسمح الله بحدوث الشر للأخيار؟ وهل هو حقاً شر أم خير متكرر؟
 - ٥- هل إصابة الأخيار بالبلايا، وظهور الظلم في العالم دليلاً على وجود الشر؟
- ينقسم هذا البحث إلى ثلاثة مباحث رئيسية:
- المبحث الأول: ماهية الخير والشر في الفكر اللاهوتي الأوغسطيني.
- المبحث الثاني: التجربة الروحية والتطور العقلي لفكر أوغسطين.
- المبحث الثالث: معالجة اللاهوت الأوغسطيني لمعضلة وجود الشر في العالم.
- أما عن المناهج المستخدمة في هذا البحث:
- المنهج التحليلي: الذي نهدف من ورائه إلى تحليل أنطولوجيا الخير والشر من خلال توضيح وتفسير التيوديسيا المتعلقة بالحكمة الإلهية من وجود الشر في العالم في ضوء مفارقة الخير والشر بوصفها الموضوع الرئيس للبحث.
- المنهج النقدي: الذي نهدف من خلاله إلى تفنيد استدلال الملحد على وجود تناقض بين الصفات الإلهية ووجود الشر في العالم، وعجزهم عن إقامة حجة منطقية تقوِّدهم إلى نفي وجود الإله، وذلك بإثبات أن وجود الشر لا يعنى عدم وجود إله.

٤. تركز أنواع أخرى من التيوديسيا على النتائج أكثر من التركيز على الأصول. تشير بعض المعتقدات الدينية إلى أن الإله سيظهر أنه كان خيراً جداً تجاه المخلوقات بحكم النعم أو العطايا (خاصة العطايا الدينية، مثل الاتحاد communion بالإله بوصفه الخير الأعظم) التي قد يمنحها في حياة ما بعد الموت، أو خلال تجربة دينية في الحياة الدنيا. قد يندمج هذا النهج مع أحد الأنواع الأخرى من التيوديسيا، أو يؤيده الأشخاص الذين يعتقدون أن أسباب سماح الإله بوجود الشر في العالم تتجاوز نطاق معارفنا.

انظر:

Sarot, Marcel (2003). *Theodicy and Modernity*, In: *Theodicy in the World of the Bible*. Edited by:

AnttiLaato and Johannes C. de Moor. Leiden – Boston: Brill. pp.2-6, pp.19-22.

Adams, Robert M. (1999). *The Cambridge Dictionary of Philosophy*. Art: Theodicy. General Editor: Robert Audi. 2nded. New York: Cambridge University Press. pp.910-911.=

= Reese, William L. (N.D). *Dictionary of Philosophy and Religion: Eastern and Western Thought*. Art: Theodicy. New York: Humanity Books. P.765.

Taliaferro, Charles and Marty, Elsa J. (Eds.) (2010). *A Dictionary of Philosophy of Religion*. Art: Theodicy. New York - London: Continuum. P.225.

Thiselton, Anthony C. (2002). *A Concise Encyclopedia of the Philosophy of Religion*. Art: Theodicy. The United Kingdom: University of Oxford. P.306.

المبحث الأول: ماهية الخير والشر في الفكر اللاهوتي الأوغسطيني:

أولاً: الماهية الفلسفية للخير والشر:

الخير Good اسم تفضيل كقولنا الحياة خير من الموت، وهو يدل على الحسن لذاته، وعلى ما فيه من نفع أو لذة أو سعادة^(١)، وهو كل فحص عقلي وكل فعل وكل اختيار يرمي إلى خير ما^(٢). ومن ثمَّ فهو حصول الشيء لما من شأنه أن يكون حاصلًا له، أي يناسبه ويليق به، فالحاصل المناسب من حيث إنه مؤثر فهو خير. وقيل الخير هو الحاصل النافع، والواهب للذة أو السعادة أو المؤدي إليهما^(٣).

يميز الفلاسفة بين الخيرات التي تطلب لذاتها Intrinsic Goods والخيرات التي لا تطلب لذاتها Non intrinsic Goods. وقد يصفون الخير بأنه المطلق Ultimate Good أو الأسمى Highest Good وهو الذي تتوجه إليه كل الأفعال وله قيمة في ذاته، وقد يمتنعون عن وصفه ويشيرون إليه بأنه نسبي^(٤). والخير المطلق هو أن يكون مرغوبًا لكل إنسان، والنسبي أو المقيد هو أن يكون خيرًا لواحد وشرًا لآخر. وعلى ذلك فالخير قسمان: خير بالذات، وخير بالعرض، وكذا الشر. وبعض الفلاسفة يطلقون الخير على الوجود، والشر على العدم^(٥).

الشر Evil مفهوم أخلاقي نسبي^(*) يرتبط بالسوء والفساد والألم والكآبة، ومع كل ما يتصف به من سلبية إلا أن وجوده ضروريًا، ولا يمكن قيام حياة أخلاقية دون صراع الشر مع الخير. والشر يحتوى على تناقض بداخله يتضح من خلال المفارقة التي تعطي الكينونة لما لا يحق له أن يكون. فالخير والشر بينهما علاقة جدلية تعطي تسامياً وجودياً للخير على الشر^(٦).

الشر إذن فكرة سلبية ذات وجود إيجابي باعتباره يمثل مع الخير وغيره من المفاهيم

(١) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، باب الخاء - مادة: الخير. ج ١ (أ-ض). بيروت: دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢ ص ٥٤٨.

(٢) مراد وهبه: المعجم الفلسفي. باب الخاء - مادة: خير. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة، ٢٠١٦ ص ٣٣٨.

(٣) عبد المنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة. باب الخاء - مادة: خير. ط ٣. مكتبة مدبولي. القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٣٣٧.

(٤) عبد المنعم الحفني: الموسوعة الفلسفية. مادة: خير وشر. مكتبة مدبولي. القاهرة، (د.ت)، ص ١٧٦.

(٥) جميل صليبا. المعجم الفلسفي. باب الخاء - مادة: الخير. ص ٥٤٨.

(*) يتناول بعض الناس ماهية الشر من خلال مقاييسهم الشخصية النسبية، فما يكون خيرًا للإنسان، قد يكون شرًا لآخر، وهي لا تصلح لحكمنا على الأشياء من حيث كونها خيرة أو شريرة لكونها مقاييس ناقصة وأنانية. فإذا تم - مثلاً - إقالة شخص ما من عمله وتعيين آخر بدلاً منه، فهذا الموقف يمثل للشخص الذي تم إقالته شرًا، بينما يمثل لمن تم تعيينه خيرًا، وهذا يعني أن الموقف الواحد يكون جامعًا للخير والشر في آن واحد.

(٦) أحمد عبد الحلیم عطية: الموسوعة الفلسفية العربية. مادة: شر. رئيس التحرير: معن زيادة. مج ١ (الاصطلاحات والمفاهيم). (د.م). معهد الإنماء العربي، ١٩٨٦، ص ٥١٠.

الأخلاقية جزءاً من نظرية عامة في القيمة. فالقيم السلبية توجد بذاتها إيجابياً، كما أن وجود الشر واعتباره شيئاً إيجابياً ساعد على إحداث وعى بوجود الخير^(١).

وقيل الوجود خيراً محضاً، لأنه يستند إلى الله وهو خير محض. والعدم شر محض، لأنه لا يستند إلى الله. وقارنوا الخير بالشر في العالم، فقالوا إن المنافع في الوجود أكثر من المضار، ووقوع الخير المشوب بالشر القليل من اللطف والحكمة، وخلق الشر المحض والشر الغالب والشر المساوي ليس من الحكمة^(٢).

أما الشر بمعنى عام يقال على كل ما كان موضوعاً للاستهجان والذم، وترفضه الإرادة^(٣)، وهو مأخوذ من كلمة Yfel الأنجلوسكسونية. وهو نقيض الخير ومكمله، يُعرّف هذا المصطلح بشكل سلبي دائم تقريباً. وقد تناول كل من الدين والفلسفة مفهوم الشر^(٤).

ثانياً: الماهية اللاهوتية للخير والشر في فكر شيشرون:

"الخير" لا يعتبر فقط مصطلحاً يُقصد به المدح والثناء، ولكنه في المقام الأول مصطلح وجودي في قصده، بمعنى أنه يشير إلى جوهر الإله غير القابل للتغير، وبالتالي فمصطلح "الخير" ينبئ بما يمكن للإله أن يفعله أو لا يفعله. وبالتالي، فإن "الخير" له وظيفة وجودية ومنطقية في المقام الأول؛ كما ذكر أوغسطين ذلك بقوله: "لماذا ينبغي أن نقول إن جوهر الإله لا يتغير، لأنه إذا تغير، لا يكون إلهاً"^(٥).

قدّم القديس أوغسطين تفسيراً مزدوجاً للشر. فقال إنه عدم وجود، وغياب، وخالٍ من الإيجابية. وقال أيضاً إنه سياق يُنظر إليه من منظور محدود^(٦). فالشر، وبالأخص الشر الأخلاقي، ينبع من جنوح إرادتنا وابتعادها عن الله؛ وذلك من خلال حرية الاختيار التي أساء الإنسان استخدامها متجاهلاً قيم الخير والحق والجمال، فالسعادة كامنة في حب الإرادة الخيرة، بينما البؤس نتاج الإرادة الشريرة^(٧).

إن الشر في فكر أوغسطين ليس له طبيعة إيجابية، وإنما هو افتقاد الخير، كما أنه

(١) أحمد عبد الحلیم عطية. الموسوعة الفلسفية العربية. مادة: شر. ص ٥١٠-٥١١.

(٢) عبد المنعم الحفني. المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة. باب الخاء - مادة: خير. ص ٣٣٧-٣٣٨.

(٣) مراد وهبه. المعجم الفلسفي. باب الشين - مادة: شر. ص ٤٠٨.

(4) Reese, William L. *Dictionary of Philosophy and Religion: Eastern and Western Thought*. Art: Evil. P.216.

(5) Herman, Arthur L. *The Problem of Evil and Indian Thought*. Delhi: MotilalBanarsidass, 1976, P.83.

(6) Reese, William L. *Dictionary of Philosophy and Religion: Eastern and Western Thought*. Art: Evil. P.216.

(٧) هنري تشادويك (٢٠١٦). أوغسطينوس مقدمة قصيرة جداً. ترجمة: أحمد محمد الروبي. مراجعة: هاني فتحي سليمان. القاهرة: هنداوي للتعليم والثقافة. ص ٤٥.

ليس "شيئاً" قائماً في حد ذاته، وبالتأكيد ليس "شيئاً" خلقه الإله^(١). ولا يصح أن نطلق على الشر مصطلح "الشيء"، لأن هذا المصطلح ينطوي على "حقيقة إيجابية"، فلو أن الشر حقيقة إيجابية، فلا بد أن نرجعه إلى الخالق، إلا إذا توهمنا أن المخلوق لديه القدرة على الخلق الإيجابي من العدم^(٢).

لقد خلق الإله إمكانية ارتكاب الشر فقط، الذي يصنعه البشر فعلياً باختياراتهم وسقوطهم^(٣)(*). فمسيببات الأمور الخيرة من نعم الخير الرباني، في حين أن مسببات الشر من صنع الإرادة الإنسانية، فالشر إذن من وجهة نظر القديس أوغسطين انحراف الإرادة المخلوقة عن الخير المطلق الثابت. وعليه فإن الشر يجنح بعيداً عن الجوهر، ويتجه نحو الفوضى ساعياً لتحويل ما هو كائن بالفعل إلى العدم^(٤).

وعلى هذا فإذا كان الشر دالاً على فقدان، وليس عنصراً إيجابياً، فإن هذا يعطينا من الاختيار بين أمرين، إما أن نعزو الشر الأخلاقي إلى سماح من الخالق الخير، وإما أن بنتدع قوة شريرة أولية عليا مسئولة عن الشر كما يقول المانويون، وقد لاقى هذا الطرح قبولاً عند بعض الفلاسفة المحدثين ومن بينهم جوتفريد فلهلم ليبنتز G. W. Leibniz (١٦٤٦-١٧١٦)^(٥).

وفي ذلك يقول القديس أوغسطين في كتابه "الاعترافات" Confessions الذي يُعد بحق أول سيرة ذاتية في الأدب الغربي: "هكذا اعتقدت أن في الفضيلة وحدة وفي الرذيلة انقساماً؛ وخيل إلي أن النفس العاقلة ترتكز على هذه الوحدة، وعلى جوهر الحقيقة والخير الأسمى؛ واعتقدت، وأنا الشقي، أن انقسام الحياة غير العاقلة يوصلني إلى معرفة جوهر الشر الأكبر الذي هو طبيعة وحياة، وهذه الحياة ليست منك، يا إلهي، يا علة كل كائن، وما أدركت إلا أن الشر لا يمكن أن يكون جوهرًا وأن عقلنا خير أسمى لا يتغير!"^(٦)

(1) Thiselton, Anthony C. *A Concise Encyclopedia of the Philosophy of Religion*. Art: Evil. P.86.

(٢) فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة (من أوغسطين إلى دانز سكوت). ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام وإسحاق عبيد. مراجعة وتقديم: إمام عبد الفتاح إمام. مج ٢. القسم الأول. العدد: ١٥٤٤. المركز القومي للترجمة. القاهرة، ٢٠١٠، ص ١٢٠.

(*) السقوط The Fall: المقصود به في المسيحية سقوط آدم وحواء في المعصية والخروج من حالة البراءة إلى حالة العصيان والذنب (الخطيئة الأولى).

(3) Thiselton, Anthony C. *A Concise Encyclopedia of the Philosophy of Religion*. Art: Art: Evil. P.86.

(٤) فردريك كوبلستون. مرجع سابق. ص ١٢٠.

(٥) المرجع نفسه. ص ١٢١.

(٦) أوغسطينوس: اعترافات القديس أوغسطينوس. نقلها إلى العربية: الخوري يوحنا الحلو. ط ٤. دار المشرق. بيروت، ١٩٩١، ص ٧٣.

يقول أيضاً في كتابه "محاورة الذات": "ما دمنا مركبين من نفس وجسد، فالنفس هي الجزء الأفضل، والجسد هو الأقل خيراً. الخير الأسمى هو أفضل خير فينا؛ علماً بأن الخير الأعظم للنفس هي الحكمة، والشر الأكبر للجسد هو الألم. وينتج عن ذلك أن خير الإنسان الأسمى الحكمة وشره الأسوأ الألم."^(١)

لذلك بدأ أوغسطين في صيف عام ٣٨٧م في كتابة أطروحة كبيرة ومعقدة "عن أصل الشر وحرية الاختيار"، فقد دلل على أن للإرادة مكانة محورية في كل فعل أخلاقي. فكان يفضل تأصيل الشر في اضطراب الروح، بدلاً من توطينه في الجسد والمادة، كما ذهب إلى ذلك أفلوطين، وعلى الرغم من انشاقه عن هذا الرأي الأفلوطيني القائل بأن المادة مصدر الشر، فإنه وافق على أن الاختيار للروح مرتبط بشكل وسواسي بالجسد. والمادة في حد ذاتها محايدة أخلاقياً؛ لكنها تحمل في طياتها دونية ميتافيزيقية. فقد كان لأدم قبل السقوط وللمسيح في انبعاثه "طبيعة نقية" لا ينالها بقية البشر^(٢).

ثالثاً: الشر الأخلاقي Moral Evil والخطيئة الأصلية Original Sin:

غالباً ما يُقسّم الشر إلى شر أخلاقي وشر طبيعي. الشر الأخلاقي ينشأ من فعل البشر، في حين أن الشر الطبيعي ينشأ بشكل مستقل عن الفعل البشري، على سبيل المثال، من الأمراض والكوارث الطبيعية. على الرغم من أن بعض الفلاسفة قالوا بأن الشر غير حقيقي ووهمي، إلا أن مثل هذه النظريات غير مقنعة. إذا افترضنا أن الشر ليس خيالياً، فما طبيعة الشر الأخلاقي؟ هناك جوابان عن هذا السؤال: أحدهما: إن الشر الأخلاقي ليس شيئاً إيجابياً، ولكنه سلبيّ بالكامل - أي غياب الخير أو عدم وجوده. والجواب الآخر: إن الشر شيء إيجابي وحيوي. يعد الشر الأخلاقي في معظم الفكر اليوناني والمسيحي انتفاء الخير الأخلاقي، أو غيابه، أو عدم وجوده^(٣).

وفقاً للتراث المسيحي، الشر الأخلاقي هو نتاج الخطيئة الأصلية، والتي يبدو أن القديس بولس St. Paul يعتبرها نقطة ضعف تؤدي إلى الخطيئة، وليست خطيئة في نفسها. أكد كل من القديس أوغسطين St. Augustine (٣٥٤-٤٣٠) والقديس توما الأكويني St. Thomas Aquinas (١٢٢٥-١٢٧٤) أن الشر الأخلاقي بمثابة حرمان من الخير الإلهي،

(١) القديس أوغسطينس: محاورة الذات. نقله إلى العربية: الخور أسقف يوحنا الطو. دار المشرق. بيروت، ١٩٩١، ص ٣٤.

(٢) هنري تشادويك. مرجع سابق. ص ٤٥-٤٦.

(3) Rowntree, P. M. *Dictionary of Ideas*. Art: Evil. Ed. Anne Lucie Norton. London: Brockhampton Press, 1997, P.184.

حيث يحدث الشر الأخلاقي في غياب الله، عندما يستبعد البشر المحبة الإلهية من حياتهم. إلا أن اللاهوتي المعاصر جون هيك يقول في كتابه "الشر وإله المحبة" (١٩٦٨م)، إن نظرية "غياب الخير" غير كافية لوصف التجربة. فبالنسبة لهيك Hick أو جوبلز Goebbels أو الشيطان عند ميلتون Milton، يمثل "شرًا أخلاقيًا إيجابيًا"^(١) ورهيبًا للغاية". فالشر لا يمكن أن يكون مجرد "غياب" أو "عدم وجود"، لأن "الكراهية ليست مجرد غياب الحب."^(١)

رابعًا: غياب الخير Absence of good:

تقول الفيلسوفة ماري ميدجلي Mary Midgley (١٩١٩-٢٠١٨م) في كتابها "الشر: بحث فلسفي" (١٩٨٥م)، بأن الشر الأخلاقي هو "غياب" أو "عدم وجود"، لكن ذلك لا يجعله أقل تخويفًا. مثل الظلام (الذي هو غياب النور)، والبرد (الذي هو غياب الحرارة)، الشر مُدمر لكن لا يمكن استبداله. تقول ميدجلي أيضًا بأن الشر ينشأ عند البشر من التفسخ الجزئي للذات - من انتهاكنا الذاتي لنزاهتنا الأخلاقية. فالأفعال والأفكار الشريرة أخلاقيًا - التي تحدث عندما نغمس في مشاعر الكراهية والسخط السلبية التي تدمر وحدة أو كلية طبيعتنا. فبعد أن أصبحت الذات المحطمة غافلة عن كليتها wholeness، تميل إلى التركيز على شظاياها بشكل وسواسي. وبما أن هذا الوسواس يقضي على القدرات التي لا تمثل جزءًا منه، فإنه يؤدي إلى الطيش وخداع النفس، والتي ينبع منها المزيد من الأفكار والأفعال الشريرة^(٢).

في مقابل نظرية "الغياب"، ترى كل من المانوية والأفلاطونية الجديدة أن الشر قوة إيجابية وحيوية. ففي المانوية، الشر يمثل قوة كونية تخوض حربًا ضد الخير. وفي الأفلاطونية الجديدة للفيلسوف أفلوطين (٢٠٥-٢٧٠م)، الشر له السيادة على العالم المادي. كان لكل من المانوية والأفلاطونية الجديدة تأثير كبير على المسيحية المبكرة، وما زالت العقيدتان تؤثران بشكل غير مباشر في مشاعر الكثير من المسيحيين. ففي المانوية والأفلاطونية الجديدة يُنظر إلى النساء على أنهن شريرات على نحو مضاعف - فهن يغرين الرجال بالمشاركة في هذه المادة من خلال الممارسة الجنسية، ويجلبن المزيد من النفوس إلى مصيدة المادية عبر الولادة. يمكن القول إن تأثير المانوية والأفلاطونية الجديدة في المسيحية يمكن رؤيته اليوم في المعارضة المسيحية لنتصيب النساء ككاهنات^(٣).

(*) إيجابي أي فاعلٌ وليس مقتصرًا فقط على غياب الخير.

(1) Loc. Cit.

(2) Rowntree, P. M. *Dictionary of Ideas*. Art: Evil. P.184.

(3) Loc. Cit.

خامساً: تمجيد الشيطان - المنظور الرومانتيكي:

أحييت الرومانتيكية Romanticism خلال القرن التاسع عشر المنظور القائل بأن الشر شيء إيجابي، بل وحتى رائع. أُعجب كل من الشعارين بيرسي بيش شيلي Percy Bysshe Shelley (1792-1822م)، وويليام بليك William Blake (1757-1827م) بشخصية الشيطان وتعاطفا معها في قصيدة "الفردوس المفقود" لـجون ميلتون. يمكن القول إن رؤيتهما الرومانتيكية للشيطان ميلتون كبطل متمرد في مواجهة الطغيان الأخلاقي رؤية خاطئة: لأن مصدر عظمة الشيطان ليس فخره ونظرته المتعالية لنفسه، بل فضائله، مثل الشجاعة، التي لا يزال يحتفظ بها. كما تقول ماري ميدجلي: "إن رذائل شيطان ميلتون تأتي على هامش فضائله"^(١).

المبحث الثاني: التجربة الروحية والتطور العقلي لفكر أوغسطين:

أولاً: القديس أوغسطين إمام فلاسفة العصور الوسطى:

وُلد أوريليوس أوغسطينوس أعظم آباء الكنيسة الكاثوليكية وأهم فلاسفتها في طاجست Thagaste التي تعرف اليوم "بسوق الأخرس" في شرق الجزائر عام ٣٥٤م^(٢) لأُم مسيحية ورعة تُدعى "مونيكا"، وأب يُدعى "باتريكيوس" والذي ظل وثنياً طوال حياته حتى تنصر وعُمد^(*) وهو على فراش الموت. وقد حظى باهتمام عائلته لا سيما أمه، وتوفي عام ٤٣٠م^(٣).

وكان خلال الأربعة والثلاثين عاماً الأخيرة من عمره أسقفاً لمدينة بحرية تنسم بالحركة والنشاط، كانت تُعرف آنذاك باسم "هيبو رجيوس"، وتمثلها الآن مدينة "عنابة" بالجزائر. وفي ميناء هيبو Hippo، كانت الكتب حكرًا عليه، ولم تكن عائلته ذات خلفية ثقافية عالية، فقد حصل تلك الثقافة من خلال التعليم^(٤). ومع أن "هيبو" كانت مدينة مزدهرة، إلا أن اسمها لم يرتبط بفلاسفة أو علماء لاهوت أو شخصيات بارزة غير أوغسطين^(٥).

(1) Loc. Cit.

(٢) إمام عبد الفتاح إمام: **الفيلسوف المسيحي.. والمرأة.. سلسلة الفيلسوف.. والمرأة** (٣). مكتبة مدبولي. القاهرة، ١٩٩٦، ص ١١١.

(*) أحد طقوس المسيحية والتي تتمثل في دخول الإنسان الحياة المسيحية، والشخص الذي يتم تعميده يصبح تابعاً ليسوع المسيح وتابعاً للكنيسة المسيحية. فإغتسال الإنسان المعمد بالماء يخلصه من الخطيئة الأصلية (أي خطيئة آدم وحواء) كي يدخل الحياة كإنسان جديد. وتعد المعمودية أحد الأسرار السبعة المقدسة في الكنيسة الأرثوذكسية والكاثوليكية.

(٣) جاريث ب. ماثيوز: **أوغسطين**. ترجمة: أيمن فؤاد زهري. العدد: ١٩٨٤. المركز القومي للترجمة. القاهرة، ٢٠١٣، ص ٢٤.

(٤) هنري تشادويك. مرجع سابق. ص ٩-١٠.

(٥) جاريث ب. ماثيوز. مرجع سابق. ص ٢٣.

عُمد أوغسطين عام ٣٨٧م وهو في الثالثة والثلاثين من عمره على يد القديس أمبروز St. Ambrose (٣٤٠-٣٩٧م)، وكان يستمع إلى عظاته في روما وشروحه للكتاب المقدس، وردوده على المانويين وأصحاب البدع^(١). ولأوغسطين مؤلفات أشهرها كتاب "المدينة الإلهية"، وكتاب "الاعترافات"، وكتاب "اللطف"، وأهمها هو السُّفر الأول، الذي يُعدُّ فلسفة دينية ومدنية معاً^(٢).

وعلى الرغم من تأثره بالمدارس الفلسفية في العصر الهلينيستي، إلا أنه ليس فيلسوفاً هلينستياً، بل هو أول فيلسوف مسيحي على الرغم من أن فترة حياته لا تنتمي إلى فترة العصور الوسطى! فتقافته وعقليته جعلت منه شاهداً على أفول نجم الفلسفة الهلينيستية^(٣).

ومن ثمَّ عاش كل من أنسلم، وتوما الأكويني، وبترايك (الذين لم تخلُ جيوبهم من كتاب الاعترافات)، ولوثر، وبيلارمين، وبسكال، وكيركجور في جلاب أوغسطين، وكانت كتاباته من بين الكتب المفضلة للفيلسوف النمساوي فيتجنشتاين. وتنبأ تحليله النفسي بأجزاء من أعمال فرويد؛ فهو أول من استكشف وجود "اللاوعي"^(٤).

ثانياً: أطوار حياة أوغسطين العقلية وتطور فكره الديني والفلسفي: أ. اعتناقه للمانوية:

لم يبدأ أوغسطين بالفلسفة، بل بالمانوية، لأنه وجد لديهم الشجاعة الكافية لتفسير كل شيء دون اللجوء إلى الإيمان بشكل مطلق، فهم عقليون يعتزون بالعقل، ويعتمدون على الفهم^(٥).

عبرت عقيدة ماني Mani (٢١٦-٢٧٧م) أو المانوية عن النفور من العالم المادي، واعتبر أتباع المانوية "النصف الأدنى من الجسد" عملاً مثيراً للاشمئزاز من أعمال الشيطان الذي هو أمير الظلام. وكان الجنس والظلام مرتبطين بعلاقة وثيقة في عقلية ماني؛ وكان الظلام بالنسبة إليه يمثل جوهر الشر^(٦). ولقد ظل القديس أوغسطين "سماً" حوالي تسع سنوات معتقاً للتنائية المانوية Manichaeen Dualism التي رأى فيها وسيلة لفهم العالم

(١) علي زيعور: أوغسطينوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسيطية. دار اقرأ. بيروت، ١٩٨٣، ص ١٠١.

(٢) محمد عبد الله دراز: الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. القاهرة: ٢٠١٤، ص ١٧.

(٣) جاريت ب. ماثيوز. مرجع سابق. ص ٢١-٢٢.

(٤) هنري تشادويك. مرجع سابق. ص ١٢.

(٥) إتين جلسون: روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط. ترجمة وتعليق: إمام عبد الفتاح إمام. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة، ٢٠١١، ص ٥٩.

(٦) هنري تشادويك. مرجع سابق. ص ١٩.

المركب من الخير والشر^(١).

اتخذ ماني الثنوية Dualism^(*) الإيرانية منطلقاً له، وهذه الثنوية الميتافيزيقية تنتمي إلى زرادشت Zoroaster (٥٨٣ - ٦٦٠ ق.م)، والثنوية في تفكير زرادشت تؤكد على صفة الخير المطلق في الخالق، فإذا كان الله هو الخير، فلا بد من تقديم تفسير لوجود الشر في العالم. والتفسير الذي اقترحه زرادشت يقول بنشوء روحين متعارضتين عن الإله الأزلي الحق: روح خيرة اختارت الخير وهي "سبينتا ماينو" Spenta Mainyu، وأخرى شريرة اختارت الشر وهي "أنجرا ماينو" Angra Mainyu، إلا أن هذه الثنوية التوحيدية خضعت للتحويل^(٢)، فأصبح "أهورا مزدا" Ahura Mazdā الذي يمثل قوة الخير، والنور، والحياة، والنظام، والقانون، والحق طرفاً في الصراع أمام "أهريمان" Ahriman الذي يمثل قوة الشر، والظلام، والموت، والشر، والباطل^(٣).

لكن المانوية ترفض اعتبار الخير والشر قوتين متكافئتين، أي أنهما غير متساويين في القدرة، كما ترفض اعتبار ممثل الشر إلهاً يقف على قدم المساواة مع الله، وهذه هي نقطة الخلاف الجذرية بين ماني والزرادشتية المتأخرة. وعلى هذا ذهب ماني إلى القول بوجود مبدئين^(*)؛ الأول هو الله الذي يأتي بكل خير، والثاني هو المادة الممثلة في الشيطان أهريمان الذي يأتي بكل شر، وهذا الشيطان ليس إلهاً رغم سلطته على النصف المظلم من الكون^(٤).

وفقاً للزرادشتية Zoroastrianism والمانوية Manichaeism، يمثل الشر قوة كونية في حالة حرب مع الخير^(٥).

(١) إمام عبد الفتاح إمام: *مدخل إلى الميتافيزيقيا*. نهضة مصر. القاهرة، ٢٠٠٥، ص ١٢٨.
(*) معتقد يقول بوجود مبدئين متناقضين -الخير والشر أو النور والظلمة- وراء مظاهر الوجود في صراع دائم، وهذا المعتقد يثبت وجود الشر في العالم؛ لكن ينسبه إلى إله غير إله الخير.
(٢) فراس السواح (٢٠٠٢). *دين الإنسان: بحث في ماهية الدين ومنتشأ الدافع الديني*. ط ٤. دمشق: دار علاء الدين. ص ١٠٣-١٠٤.
(٣) يوسف كرم - إبراهيم مذكور: *دروس في الفلسفة*. عالم الأدب للترجمة والنشر. بيروت، ٢٠١٦، ص ٢٦.
انظر أيضاً:

Thiselton, Anthony C. *A Concise Encyclopedia of the Philosophy of Religion*. Art: Zoroastrianism. P.327.

(*) أما الذين قالوا بمبدئين أوليين أحدهما خير والآخر شرير فمنتشأ ضلالهم أنهم لم يراعوا العلة الكلية للموجود كله، إنما راعوا العلة الجزئية للمعلولات الجزئية، ولذلك فمتي وجدوا أن شيئاً مضر بشيء بقوة طبيعته، اعتبروا طبيعة ذلك الشيء شريرة كما لو قيل إن طبيعة النار شريرة، لأنها أحرقت بيت فقير. وقد فاتهم إن الحكم بخيرية شيء لا يبنى على نسبه إلى شيء جزئي بل على اعتباره في نفسه، وعلى نسبه إلى العالم كله. (انظر: توما الأكويني (١٨٨٧). *الخلاصة اللاهوتية*. ترجمه من اللاتينية إلى العربية: الخوري بولس عواد. مج ١. المطبعة الأدبية، بيروت: ص ٥٩٨).

(٤) فراس السواح. مرجع سابق. ص ١٠٤.

(5) Reese, William L. *Dictionary of Philosophy and Religion: Eastern and Western Thought*. Art: Evil. P.216.

لكن المانوية تقول بالثنوية المطلقة التي ترى وجود مبدئين أو أصليين أزليين مستقلين ومتعارضين، لكل منهما عالمه وسلطانه المطلق على ذلك العالم. فعالم للروح وللنور الأزلي، وعالم للمادة وللظلمة الأزلية. ولم يدخل هذان العالمان في صلة مباشرة مع بعضهما إلا عندما دخلت الظلمة في نسيج النور، فكان لأبد من الفصل بينهما مجدداً^(١).

قد يكون من غير الدقيق أن نصف العقيدة المانوية بالخرافة؛ وبالتأكيد لم يكن المقصود بها الرمزية. لقد كانت التعاليم بالنسبة للمؤمن تمثل الحقيقة المطلقة: فكسوف الشمس لم يكن دليلاً على قوة الظلام ضد النور، بل كان دليلاً واضحاً على هجوم قوى الشر على قوى الخير. وقد أكد ماني أن حقيقة التعاليم كانت واضحة للحواس^(٢).

بينما الزرادشتية تقول بالثنوية الجذرية التي ترى وجود مبدئين متساويين في القيمة النسبية وفي علاقتهما بالوجود. ولكن هذين المبدئين ليسا أزليين بل حادثين ومتولدين عن الإله الأزلي الواحد القديم، وهما في حالة صراع دائم منذ صدورهما^(٣).

يجب أن نلاحظ أن ثنائية المانوية كانت مطلقة، ولم تكن هناك حاجة إلى حساب أصل الشر. في حين أن خصوم التوحيد سوف يدعون أن هذا ينتقص من قوة الإله المطلقة، فإن المانويين بإمكانهم أن يردوا على أنه بذلك فقط يثبت خير الإله المطلق. لقد كان الشر حقيقياً تماماً، حيث إن الموت والظلام موجودان كوجود الحياة والنور^(٤).

يمر تاريخ الإنسانية أثناء الصراع بين الخير والشر بثلاث مراحل: المرحلة الذهبية للخلقة قبل أن يعدو الشر على الخير، ومرحلة امتزاج الخير بالشر، ومرحلة الفصل بينهما بالقضاء على قوى الشر، كي يعود العالم طيباً كما كان، والارتقاء به من حالة الوجود المادي إلى حالة الوجود الروحاني^(٥).

تمثل "المرحلة الثالثة" -التي يتم الفصل فيها بين الخير والشر- أبدية جديدة دون خوف. ومن المهم أن تمثل انتصاراً وخاتمة، وليس مجرد استعادة "المرحلة الأولى". لن يتمكن الظلام مرة أخرى من تهديد النور. ومع ذلك، فإنها تعد مثالاً مهماً على مادية Materiality تصور ماني بأنه لا يمكن تدمير الشر بمعنى طمسه من كل الوجود؛ وإنما

(١) فراس السواح: الرحمن والشيطان: الثنوية الكونية ولاهوت التاريخ في الديانات المشرقية. دار علاء الدين دمشق، ٢٠٠٤، ص ١٢.

(2) Gardner, Iain & Lieu, Samuel N. C. (Eds.). *Manichaean texts from The Roman Empire*. Cambridge University Press. New York, 2004, P.11.

(٣) فراس السواح: الرحمن والشيطان: الثنوية الكونية ولاهوت التاريخ في الديانات المشرقية. ص ١٢.

(4) Gardner, Iain & Lieu, Samuel N. C. (Eds.). Op.Cit. P.11.

(٥) فراس السواح: الرحمن والشيطان: الثنوية الكونية ولاهوت التاريخ في الديانات المشرقية. ص ١١.

بالأحرى يجب سجنه ودفنه^(١).

يشرح أوغسطين قائلاً: "ومع ذلك، يزعمون أن قدرة الله ليست وحدها التي تؤثر في هذا التطهير والتحرير للخير والشر في كل أنحاء الكون وكل عناصره، بل أيضاً اختيارهم يحقق النتائج نفسها عن طريق الطعام الذي يقتسمونه. وهم يذكرون أن المادة الإلهية تتداخل مع هذا الطعام تمامًا كما تفعل مع الكون بأسره، ويتخيلون أنه يُنقى باختيارهم من خلال نمط الحياة الذي اختار المانويون أن يعيشونه، كما لو كان وضعهم في الحياة أقدس وأكثر امتيازاً من مستمعيهم Auditors. لأن كنيستهم ستتكون من هاتين الفئتين، المختار Elect والسماعون. علاوة على ذلك، فإنهم يعتقدون أن هذا الجزء من مادة الخير الإلهية المخلوطة والمحبوسة في الطعام والشراب مرتبط بقوة وبشدة ببقية البشر، حتى مستمعيهم، ولكن بشكل خاص بأولئك الذين ينشرون الذرية."^(٢)

زعم المانويون أنهم يملكون الإجابة المُرضية لإشكالية الشر: فهو بالنسبة لهم قوة راسخة في بنية العالم المادي لا يمكن استئصالها. ولكي تكون الحجة متماسكة، لا بد من التضحية إما بالقدرة المطلقة وإما بالخيرية المطلقة. ولقد سلم معلمو المانوية بأن كل الناس يعلمون المقصود من كلمة "شر"^(٣).

فمن وجهة نظر المانويين إذن، لا يوجد إله واحد كلي القدرة، والموجودات الإنسانية ليست حرة، بل إنها واقعة تحت رحمة هذا الإله أو ذاك. ويعتقد المانويون أن الموجودات الإنسانية لن تصل إلى الخير الأخلاقي الحقيقي إلا بعد الموت عند انفصال النفس عن البدن^(٤). لذا يؤكد ماني على مستمعيه أنه على الرغم من عودة الشر مرارًا وتكرارًا، فإن قوى النور تتال النصر النهائي؛ وبالتالي لا بد دائماً من العمل من أجل الخير^(٥).

إنهم يعزرون أصل الخطيئة ليس إلى حرية اختيار الإرادة، ولكن إلى طبيعة العنصر المعاكس، الذي يقولون بوجوده داخل الإنسان، حيث شيدت الخطيئة جسم الإنسان من مادة الشر. ومع ذلك، فإن روحه إلهية، مأخوذة من أبناء "الإنسان الأول" الخمسة. لقد تقيدت الصفات الفكرية الخمس إلى الجسم، وغطتها الصفات الشريرة المقابلة. وقد قاد هذا الروح إلى الخطأ ونسيان أصلها الحقيقي. وعندما يأتي عقل النور Light Mind، فيحرر الصفات الإلهية، ويقيد الصفات الشريرة، ويسجن الخطيئة. سيتحول المؤمن إلى إنسان جديد^(٦).

(1) Gardner, Iain & Lieu, Samuel N. C. (Eds.).Op.Cit. pp.20-21.

(2) Ibid. P.24.

(٣) هنري تشادويك. مرجع سابق. ص ٢١.
(٤) روبرت س. بلمون: الدين من منظور فلسفي: دراسة ونصوص. ترجمة: حسون السراي. العارف للمطبوعات. بيروت، ٢٠٠٩، ص ١٠٤.

(5) Gardner, Iain & Lieu, Samuel N. C. (Eds.).Op.Cit. P.209.

(6) Ibid. P.209.

كان أوغسطين ميالاً إلى أن يميز وجهة نظره عن الازدواجية المانوية بالتأكيد على الحرية لدى الرب والحرية لدى الإنسان (هبة المثابرة)؛ فقد أجاز الرب ضلال الفاسقين، لكنه لم يفرض ذلك فعلياً؛ ولذا "فعندما يجازينا الرب على فضائلنا، فإنه بذلك يتوّج هباته لنا"^(١).

ترى المانوية أن العالم يتكون من مزيج من كلا الطبيعتين، الخير والشر. ومع ذلك، يصدر الجزء الإلهي يومياً من جميع أنحاء العالم ثم يعود إلى نطاقه الخاص؛ ولكن عندما يرتفع صاعداً عبر الأرض ونحو السماء، فإنه يدخل النباتات، فيثبت جذورها في الأرض، ويمنح الحياة والخصوبة للعشب والنباتات الأخرى. تأكل الحيوانات النباتات، وعندما تتزاوج، تسجن الجزء الإلهي في جسدها، وبالتالي تحوله عن مساره الصحيح، وتتسبب في انغماسه في المصاعب والخطأ. ومع ذلك، عندما يُقدّم الطعام المكون من الفواكه والخضراوات إلى الرجال المقدسين The holy men، أي إلى المانويين، فإن أي شيء فيها ذي قيمة حقيقية وطبيعة إلهية يتطهر بواسطة عفة هؤلاء الرجال، وصلواتهم، ومزاميرهم، ويصبح مثالياً من كل وجه، حتى يتمكن من العودة إلى نطاقه الخاص خالياً من أي دنس. هذا هو السبب في أنك تمنع أي شخص من تقديم الخبز أو الخضراوات أو حتى الماء (المتوفر بكثرة لدى الجميع) إلى المتسول إذا لم يكن مانوياً، خوفاً من أن يدنس الجزء الإلهي المخلوط بهذه الأشياء بخطاياها، وبالتالي يعوق عودته^(٢).

أصيب أوغسطين بخيبة أمل بعد لقائه بأسقف الطائفة المانوية مما أدى إلى زعزعة إيمانه بمذهبهم^(٣). ومن ثمّ يقول في كتابه "الاعترافات": "وقمت بأبحاثي واثقاً من ضلال تعليم هؤلاء الذين تجنبته من كل قواي، إذ شهدتهم، في أثناء تحرّيمهم عن مصدر الشر، منتفخين خبثاً، ميالين إلى الاعتقاد أن ذاتك أكثر قابلية لتحمل الشر، منهم إلى ارتكابه."^(٤)

ب. تأثره بفلسفة اليونان وروما واعتناقه المسيحية:

لم يحقق المذهب المانوي لأوغسطين ما ينشده، فلم يصل قط إلى الفهم الذي كان ينتظره لتفسير وجود الشر في العالم، فانفصل عن المانوية، وألقى بنفسه في أحضان مذهب الشك لدى شيشرون^(٥) بعد أن قرأ له كتاب "المقالات الأكاديمية" أي الأكاديمية الجديدة بعد

(١) هنري تشادويك. مرجع سابق. ص ١١٧، ص ١١٩-١٢٠.
(2) Gardner, Iain & Lieu, Samuel N. C. (Eds.). Op.Cit. P.246.

(٣) جاريث ب. ماثيوز. مرجع سابق. ص ٢٨.

(٤) أوغسطينوس. مرجع سابق. ص ١٢٤.

(٥) إيتين جلسون. مرجع سابق. ص ٥٩.

أن حولها الزعماء من مذهب أفلاطون إلى مذهب الاحتمال، غير أن هذا الشك لم يتناول وجود الله وعنايته بالمخلوقات^(١).

لقد شغل القديس أوغسطين طوال فترة المراهقة بمشكلة الشر. وعندما حاول قراءة "الكتاب المقدس" وجده كتاباً ركيكاً مقارنةً بمؤلفات شيشرون التي أدخلته عالم الفلسفة عام ٣٧٣م^(٢).

استرشد أوغسطين فيما يختص بالمسائل الفلسفية بحوارات شيشرون. ومن بين الأعمال التي أحاط بها أوغسطين علماً لشيشرون، محاورة "هورتسيوس" Hortensius (وهو مفقود الآن)؛ التي تبرر ضرورة التفكير الفلسفي لإصدار أي حكم نقدي. وفي أعمال أوغسطين الأخيرة، لم يزل يقتبس بعض عبارات من هذه المحاورة. فجعلته يفكر تفكيراً جدياً في قضايا أخلاقية ودينية^(٣). فكانت أول دافع له على التفكير؛ وأول موقظ للروح الفلسفية عنده^(٤). لم تكن روح الشك تتفق مع طبيعة أوغسطين الإيجابية، التي تنشد الحقيقة. فلجأ إلى المعرفة الوجدانية الصادرة عن الروح مباشرة^(٥). وعرف من بعض كتب الأفلاطونيين إمكان اليقين، وإمكان الروحانية، وأن الشر ليس جوهرًا^(٦).

رأى أوغسطين أن الأفلاطونية المحدثة تتفق مع العقائد المسيحية باعتبارها صورة عقلية للحقائق الإيمانية^(٧). وسرعان ما اكتشف أن كل ما هو حقيقي في الأفلاطونية المحدثة المحدثة قد تضمنه إنجيل يوحنا وسفر الحكمة، وهكذا فإن الفلسفة التي بحث عنها بحثاً طويلاً بواسطة العقل قدمها إليه الإيمان. وقد عبر أوغسطين عن تجربته الروحية في العبارة التي جعلها عنواناً لآخر كتبه: "عن ميزة الإيمان". فالإيمان في رأيه يفضي بنا إلى التعقل^(٨). أما كتب أفلاطون نفسه فلم يكن قد قرأ منها غير محاورة "مينون"^(٩). واتخذ له مبدأً مبدأً أنه "إذا قال الذين يسمون فلاسفة شيئاً حقاً ومطابقاً لإيماننا، وجب أن نأخذه منهم كما يؤخذ الشيء من غاصبه"^(١٠).

(١) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. القاهرة، ٢٠١٤، ص ٢٦.

(٢) جاريت ب. ماثيوز. مرجع سابق. ص ١٧٢.

(٣) هنري تشادويك. مرجع سابق. ص ١٧-١٨.

(٤) عبد الرحمن بدوي: فلسفة العصور الوسطى. ط ٣. دار القلم. بيروت، ١٩٧٩، ص ١٧.

(٥) المرجع نفسه. ص ١٨.

(٦) يوسف كرم. مرجع سابق. ص ٢٦.

(٧) عبد الرحمن بدوي. مرجع سابق. ص ١٩.

(٨) إيتين جيلسون. مرجع سابق. ص ٥٩.

(٩) عبد الرحمن بدوي. مرجع سابق. ص ١٩.

(١٠) يوسف كرم. مرجع سابق. ص ٢٦.

بدأ أوغسطين رحلة اعتناق المسيحية الكاثوليكية بعد أن دفعه القديس أمبروز إلى ترك مذهب المانوية والتخلي عن مبدأ الشك الذي اتخذه من معلمه الأول شيشرون^(١). ولم يكن اشتغال أوغسطين بالمسيحية جديدًا؛ بل تعلم مبادئها من قبل على يد أمه قبل اعتناقه للمانوية، ولكنه عاد إليها من جديد بتأثير خطب أمبروز. فقد بدأ يؤمن بالمسيحية؛ وحقائق الدين التي وجد أن كثيرًا منها يتفق مع العقل، فهذه الحقائق جديرة بأن يؤمن بها ولو لم يستطع العقل إثباتها^(٢).

وصف أوغسطين هذه التجربة الروحية بأنها عاصفة تلاها مطر غزير، فقد شعر بأن نفسه ممزقة بين إرادة الخير وإرادة الشر، بين مطالب الروح ومطالب الجسد، ويصف حاله هذه فيقول: "كنت أنا من يريد ومن لا يريد، وهذا العذاب الذي انتزعني من ذاتي هذا التمزق بين الإرادة والقدرة لم يكن ناجمًا عن طبيعة أجنبية عني، بل كان ناتجًا عن الألم المتولد من طبيعتي التي كانت فريسة للخطيئة"^(٣).

ذهب بعض الباحثين إلى القول إن الأفلاطونية هي التي قادته إلى المسيحية، والحقيقة أن رسائل أفلوطين أفادته في حل مشكلات عقلية كانت تحول بينه وبين فهم المسيحية كما يجب أن تُفهم، فقد توهم عند قراءته الأولى لها أنه وجد فيها العقائد المسيحية الكبرى، وهي غير موجودة بالطبع، أي أنه أحال أفلوطين مسيحيًا، ولم ينقلب أفلوطينيًا^(٤).

وهكذا تشكلت عقلية أوغسطين الدينية والفلسفية بعد أن مر بتجربة روحية تركت أثرًا رائعًا للإيمان في عقله، مما جعله يصف نفسه بـ "الرجل الذي يكتب وهو يتطور، والذي يتطور وهو يكتب"^(٥).

المبحث الثالث: معالجة اللاهوت الأوغسطيني لمعضلة وجود الشر في العالم:

لمعرفة مشكلة الشرفي إطار الاعتقاد الديني نجد في كتاب "أيوب" من "الكتاب المقدس" أن "أيوب" المتميز بعمق تقوى المتدين، المبتلى بما لا يستحقه من الآلام، نجده يصارع من أجل الحفاظ على إيمانه: (... ثم قالت له زوجته: "أما تزال صامدًا فيتماسكك؟ العن الله وموت" ولكنه أجاب "... إذا كنا نقبل الخير من الله ألا يتعين علينا قبول الشر كذلك؟"). أما الحل الأكثر شيوعًا لمشكلة الشر فقد عرضه لـ "أيوب" صديقه إيليفاز

(١) جاريث ب. ماثيوز. مرجع سابق. ص ٢٨.

(٢) عبد الرحمن بدوي. مرجع سابق. ص ١٨.

(٣) إمام عبد الفتاح إمام. الفيلسوف المسيحي.. والمرأة. ص ١١٢.

(٤) يوسف كرم. مرجع سابق. ص ٢٦-٢٧.

(٥) هنري تشادويك. مرجع سابق. ص ٩.

Eliphaz: "ليس من الدنيا يأتي الأذى، ولا البلاء من الأرض. ما ولد الإنسان إلا ليمتحن، ثم يخلق كما الطير نحو الأعالي". وهذا هو الحل الذي كان الفلاسفة واللاهوتيون يقدمونه لمشكلة الشر. وهناك عدة نماذج لهذا الحل (كالقول: إن الموجودات الإنسانية محبوبة بـ "حرية الإرادة")^(١).

أما الطرح الأكثر تأثيرًا لهذه المشكلة في المسيحية نجده عند القديس أوغسطين، حيث يقول في كتابه "الاعترافات": "ما زلت أبحث عن مصدر الشر فلم أجده؛ ولكنك لم تسمح لأفكاري المترددة بأن تجرني بعيدًا عن إيماني بأنك موجود وبأن جوهرك لا يتغير، بل ترعى البشرية بعنايتك، وتمارس عدلك فيها."^(٢)

شغلت مشكلة الشر^(٣) أوغسطين، وظل ذهنه حائرًا يؤرقه هذا التساؤل: كيف يمكن أن نفسر وجود الشر في العالم الذي خلقه الله؟ فإذا افترضنا أن الله لم يخلق هذا العالم، بل إنه لا يوجد إله يحكم هذا العالم على الإطلاق، فمن أين يأتي الخير؟ وإذا كان الله موجودًا في العالم فمن أين يأتي الشر؟ ويتساءل مرة أخرى: لِمَ لا نقول: إن المادة مصدر الشر الموجود في العالم؟ ألم يكن الجسد مصدر الشهوات ومنبع الخطيئة؟^(٣)

حاول أوغسطين حل هذه المسألة من خلال الاستعانة بالمبادئ الفلسفية لأفلوطين، فلم لا نقول: إن الله خلق الوجود، والوجود بالضرورة خير، أما اللاوجود فهو بالضرورة شر، والمادة هي "لا وجود". واللاوجود يعني أن المادة ليست موجودًا وجودًا فعليًا في العالم، وإنما تعني على وجه الدقة اللاوجود الأفلاطوني، أي أنها ليست لا وجودًا وإنما لا خير-Non-good، وإذا صح وكان اللاوجود شرًا، فلا بد أن تكون المادة هي مصدر الشر في العالم^(٤). فالمادة إذاً شر بالذات، وهي أصل الشر في الموجودات، وأصل الجهل والرذائل والأمراض^(٥).

(١) روبرت س. بلمون. مرجع سابق. ص ١٠٢-١٠٣.

(٢) أوغسطينوس. مرجع سابق. ص ١٣٠.

(*) إذا كان هناك إله مطلق القدرة، وخير محض، ويعلم كل شيء، فلماذا يكون هناك شر؟ هذه هي مشكلة الشر الكلاسيكية الإيمانية التي تأتي في شكل حجة استنباطية أو احتمالية probabilistic. تزعم الحجج الاستنباطية أن هناك عدم توافق منطقي حاد بين الإيمان ووجود الشر بالعالم. أما الحجج الاحتمالية فعادة ما تعترف بأنه من المنطقي أن يتعاش الله والشر، لكنها تقول، بالنظر إلى مقدار الشر الموجود، فمن المستبعد أو غير المحتمل أن يكون الله موجودًا. تحاول النيوديسيا أن تجد مبررًا لمشكلة وجود الشر في خلق الله. انظر:

Taliaferro, Charles and Marty, Elsa J. (Eds.). *A Dictionary of Philosophy of Religion*. Art: Evil, The problem of. P.82.

(٣) إمام عبد الفتاح إمام. مدخل إلى الميتافيزيقيا. ص ١٢٩.

(٤) إثنين جلسون. مرجع سابق. ص ١٥٢.

(٥) يوسف كرم. مرجع سابق. ص ٤٤.

أما أوغسطين فيرى أن أفلوطين مهما بالغ في ضالة المادة إلى حدها الأدنى، فهو مضطر إلى اعتبارها وجودًا ما، وإلا لما دخلت في تركيب الأشياء، ومهما تكن لا معينة، فهي موضوع للصورة وللتعيين، ومتى اعتبرها وجودًا وجعلها شرًا بالذات، فقد خالف مذهبه من وجهين، أحدهما: قوله إن الوجود والخير متساوقان، فلا يمكن أن يكون موجود ما شرًا بالذات. والآخر قوله: إن الموجود الأول هو الخير بالذات، بحيث لا يمكن أن ينتهي الصدور عنه إلى شر، فالمادة خيرة من حيث هي وجود، وصادرة عن الله، ومن التناقض أن يشخص الشر الذي هو لا وجود، في المادة مع أفلوطين، أو في إله مع المانويين، وحقيقته أنه "عدم خير في موجود هو خير بما هو موجود"، أي أنه فساد إحدى خصائص الموجود، مثل العمى، وهو عدم الرؤية في حيوان أو إنسان^(١).

إن جواب أفلوطين ليس حلًا لمشكلة الشر؛ لكنه يتسق مع مذهبه، لأن إله أفلوطين ليس خالقًا بالمعنى المسيحي الذي نجده في الكتاب المقدس، وهو غير مسئول عن وجود المادة، بينما في المسيحية خلق الله كل شيء حسن^(٢).

تعتبر مشكلة الشر بشكل عام أقوى عقبة في طريق الإيمان بالإله. يمكن التمييز بين نوعين من الشر: **الشر الأخلاقي** الكامن في الأفعال الشريرة التي يرتكبها الأشخاص الأخلاقيين، وفي العواقب السيئة التي تنتج عنها. من أمثلة ذلك تعذيب الأبرياء. عندما تعتبر الأفعال الشريرة من الناحية اللاهوتية بمثابة جرائم ضد الإله، فإنها تُعتبر خطايا. بينما **الشرور الطبيعية** هي العواقب الوخيمة لما يبدو أنه مستمد بالكامل من القوى الطبيعية غير البشرية، على سبيل المثال معاناة البشر والحيوانات من الكوارث الطبيعية مثل: الزلازل والأوبئة. يطرح كلا النوعين من الشرور سؤالًا عن ما الأسباب التي تجعل موجودًا كلي الوجود، وكلي القدرة، وخير محض أن يسمح بوجود تلك الشرور. إن ثيوديسيا (إثبات العدالة الإلهية) هو مشروع لمحاولة الإجابة عن هذا السؤال، وبالتالي تقديم تبريرات لحكمة الإله إلى البشر^(٣).

يرى أوغسطين أن الشر نوعان: شر طبيعي أو فيزيقي، وشر أخلاقي أو بشري، ولا ينسبان إلى الله، ولكن الله يسمح به، ثم يستخرج منه الخير، ما دام الشر عدمًا، فليس البحث عن علته بحثًا عن مصدر وجود، بل عن مبدأ نقص في المخلوق^(٤).

(١) يوسف كرم. مرجع سابق. ص ٤٤-٤٥.

(٢) إمام عبد الفتاح إمام. مدخل إلى الميتافيزيقا. ص ١٢٩-١٣٠.

(3) Quinn, Philip L. *The Cambridge Dictionary of Philosophy*. Art: Philosophy of Religion. P.699.

(٤) يوسف كرم. مرجع سابق. ص ٤٥.

أولاً: الشر الطبيعي أو الفيزيقي:

إن عالم موطن الكون والفساد في الطبيعة الحية والجامدة. ومن ثمَّ فإن الشر الطبيعي فساد الأشياء المادية أو زوالها، وهو ليس شرًّا مطلقاً، وإنما نسبي. فأشكال الاضطرابات وألوان الدمار الذي يحدث داخل النظام العام يعبر عن اللامساواة التي نلاحظها في المخلوقات. فإذا كانت المادة في ذاتها خيراً، فإن كل شيء يمكن أن يوصف بأنه خير؛ لأنه ليس من الضروري أن يكون خيراً في ذاته. والاضطرابات التي تحدث في العالم ونتهم بها الطبيعة هي من الناحية الميتافيزيقية ملازمة وكامنة فيها كمخلوق خُلق من العدم، ولأنها خُلقَت فهي موجودة، وخيرة، ومتغيرة. فالشر الطبيعي أو الفيزيقي يمثل قانون التغير داخل النظام العام^(١).

ثانياً: الشر الأخلاقي^(*) أو البشري (الخطيئة):

يُرد الشر الأخلاقي إلى الإرادة البشرية التي أساءت استخدام الحرية، فعندما ينبذ المرء الخير الأزلي المتمثل في إطاعة الأوامر الإلهية، والانصياع لوصايا الكتاب المقدس، فإنه يسعى وراء خير زائل. وعندما استخدم الإنسان إرادته استخداماً سيئاً وقع في الخطيئة الأولى؛ لكنه لم يرد الشر في ذاته، بل فضل نفسه على الله (أي على الخير الدائم) في سبيل بحثه عن خيره الخاص، فجلب الشر الأخلاقي إلى العالم، فقلب نظامه رأساً على عقب^(٢).

إذا كانت الخطيئة سلوكاً خاطئاً من الناحية الأخلاقية، أو يمثل تجاوزاً من نوع ما، فعندئذ لا بد وأن هناك قاعدة أو مجموعة من القواعد الأخلاقية التي لا يجب عصيانها. في الكون، فيما يتعلق بمثل هذا الفعل، هناك أربع فئات محتملة من الموجودات قادرة على القيام بالفعل: البشر Humans، والموجودات الأسمى من البشر Superhumans، والموجودات الأدنى من البشر Subhumans، والطبيعة بوصفها العالم العضوي^(٣).

أعتقد أنه من الواضح أن البشر والموجودات الأسمى من البشر يمتلكون القدرة على عصيان القواعد الأخلاقية التي تعتبر في حد ذاتها صحيحة (هم إذن قادرون على ارتكاب الشر الأخلاقي)، ومن الواضح أن لديهم القدرة على التسبب في المعاناة للآخرين ولأنفسهم. فبما أن كليهما، البشر والموجودات الأسمى من البشر، لديهما المقدرة على إدراك القواعد

(١) إمام عبد الفتاح إمام. مدخل إلى الميتافيزيقا. ص ١٣٠-١٣١.
(*) الشر الأخلاقي Deontological evil يتبع الأخلاق الواجبة التي تقول إن الشيء يكون صواباً أو خطأ في ذاته بغض النظر عن أي عواقب ستترتب عليه، وهي عكس الأخلاق العواقبية التي تقول إن تحديد صحة أو خطأ الفعل يستند إلى العواقب التي ستترتب عليه، لهذا فالشر الأخلاقي هنا المقصود به كل ما نعتبره شرًّا في ذاته.
(٢) المرجع نفسه. ص ١٣١.

(3) Herman, Arthur L. Op.Cit.P.90.

الأخلاقية، ويمكنهما أن يختارا العمل وفقاً لها أم لا، فإننا نقول إنهما يختلفان عن الموجودات الأدنى من البشروعن الطبيعة، حيث تكون الاختيارات غريزية أو مشروطة (الموجودات الأدنى من البشر) أو غير موجودة (الطبيعة). وبالتالي فكل القواعد الأخلاقية، وكل المهارات الأخلاقية التي يمكن تخيلها، لن تمنع السنجاب من أكل الفاكهة المحرمة، ولن تمنع الريح من أن تُسقطها من على فروع شجرتها المقدسة. ومن ثمّ، ففي حين أن الموجودات الأدنى من البشر والطبيعة قادرة على التسبب في المعاناة، فإنها غير قادرة على ارتكاب "الشر الأخلاقي"⁽¹⁾.

المعاناة (الشر العواقبي)^(*):

بينما تتناول الخطيئة الفعل الذي يكون خطأ بشكل ما، فإن المعاناة تتناول آثار الفعل بشكل عام. إذا أصابني إنساناً وجعلني أعاني، فإن ما فعله يعد بوضوح فعلاً خاطئاً. لكن إذا سقطت شجرة عليّ مما جعلني أعاني، لا نقول حينئذ إن ما فعلته الشجرة كان خطأ. ليس المقصود أنها لم تفعل شيئاً، بل المقصود أنها لم تتصرف من تلقاء نفسها. ولكن إذا تم التصرف بسبب الريح أو بعض قوانين السببية المعروفة، فهل يمكننا أن نقول إن الريح، وقانون السببية، مخطئان فيما فعلته بالشجرة والتي بدورها فعلته بي؟ بالطبع لا؛ لأن ما قاما به لم يكن فعلاً واعياً، مخططاً له، كما هو حاصل بشكل أساسي في حالة الفعل البشري. ويصدق القول نفسه على الموجودات الأدنى من البشر⁽²⁾.

يمكننا أن نستخرج من ذلك نوعين فقط من مشاكل الشر المرتبطة بارتكاب الخطيئة، أحدهما للبشر والآخر للموجودات الأسمى من البشر. فيما يخص الخطيئة في صيغتها اللاهوتية، مشكلة لاهوتية تخص الشر الصادر عن البشر من جهة (لماذا يسمح الإله العظيم للإنسان أن يقع في الخطيئة؟)، ومشكلة لاهوتية تخص الشر الصادر عن الموجودات الأسمى من البشر من جهة أخرى (لماذا سمح الإله العظيم للشيطان أن يقع في الخطيئة؟). لا يمكن أن تكون هناك مشكلة مماثلة أو أسئلة مماثلة للحيوانات وللطبيعة⁽³⁾.

أصول الشر تعود إلى إرادة البشر واختيارهم، وليس إلى الله. يصر أوغسطين على أن الله لم يخلق الشر، ولكنه ينشأ عن "تحول النفس بشكل متعمد عن الرغبة في الخير الأسمى". "إن ردة الإرادة هي الشر" (City of God, XII: 7). لذلك فقد خلق الله فقط

(1) Ibid. pp.90-91.

(*) الشر العواقبي Teleological evil ليس الذي يكون كذلك في ذاته، بل الذي يكون شرّاً بسبب العواقب الضارة التي تترتب عليه، كالمعاناة التي تنجم عن فعل معين.

(2) Herman, Arthur L. Op.Cit.P.91.

(3) Loc. Cit.

إمكانية ارتكاب الشر من خلال السماح للكائنات المخلوقة بالاختيار، وأن يوجهوا إرادتهم للأفضل أو للأسوأ^(١).

هل يجب أن يمنح الله حرية الاختيار تلك؟ إن هذا يسمح للمخلوقات أن تختار عبادة الله بمحض إرادتهم، ولكن إذا أصبحت شخصياتهم شريرة، فإن اختياراتهم لا يمكن إلا أن تصبح شريرة بدورها (OnFree Will, II: 1). يتتبع أوغسطين في كتابه "الاعترافات" كسر السيرة الذاتية أن "الإرادة الذاتية" تولد الشر؛ فالشر "يولد من الحرص على المصلحة الشخصية، الذي يولد الصراع وروح التنافس". حتى الطفل لديه "رغبة في أن ينصاع له الآخرون" (Confessions, I: 6: 8). وقد انخرط أوغسطين في جدال أصبح يُعرف فيما بعد باسم "الدفاع عن حرية الإرادة"^(٢).

ينبغي أن نسلم أيضاً بأن الشيطان، الذي كان ملاكاً جليلاً في الأصل، لا يدين بلؤمه وخبثه إلا لنفسه ولاختياره الحر للشر^(٣).

لما كان الله خيراً، والإنسان شريراً، فإن منح الخلاص فضل إلهي، على حين أن منعه ليس بالشيء الذي يستحق اللوم. ومن ناحية أخرى فإن رأيه القائل إن الشر ليس مبدأ أساسياً، كما اعتقد المانويون، وإنما هو نتيجة إرادة شريرة، كان فكرة قيمة أخذت بها العقائد الإصلاحية، وهي أساس مفهوم المسؤولية في البروتستانتية^(٤).

وفي ذلك يقول روسو في كتابه "إميل": "أيها الإنسان، لا تبحث بعد اليوم عن المسؤول عن الشر؛ فهذا المسؤول هو أنت نفسك. إنه لا يوجد إطلاقاً أي شر إلا ما اقترفت يدك أو ما تعانیه، ولا يأتي هذا وذاك إلا منك أنت."^(٥)

الشر إذن يعيش على هامش الخير. فعلى سبيل المثال، إن الكذب لا يحقق هدفه إلا إذا افترضنا أنه حقيقة بشكل طبيعي. وفي ذلك يقول الأكوييني بأنه: "إذا مُنع كل الشر، فسيخنق الكثير من الخير"^(٦)، سوف تموت الأسود إذا لم يكن هناك افتراس للحيوانات

(1) Thiselton, Anthony C.A Concise Encyclopedia of the Philosophy of Religion. Art: Evil. P.86.

(2) Thiselton, Anthony C.A Concise Encyclopedia of the Philosophy of Religion. Art: Evil. P.86.

(٣) لوك فيري: الإنسان المولده أو معنى الحياة. ترجمة: محمد هشام. أفريقيا الشرق. بيروت، ٢٠٠٢، ص ٧٦.

(٤) برتراند رسل: حكمة الغرب. ترجمة: فؤاد زكريا. ج ١. العدد: ٦٢. عالم المعرفة. الكويت، ١٩٨٣، ص ٢٠٠.

(٥) لوك فيري. مرجع سابق. ص ٧٦.

(*) يرى الأكوييني أن الشر والخير ليسا متقابلين على طريق العدم والملكة بل على طريق المضادة. فالشر يدل على طبيعة ما. وأيضاً ما ليس موجوداً لا يفعل. والشر يفعل لأنه يفسد الخير. فهو إذا موجود ما، وله طبيعة ما. كما أن كمال العالم يرجع إلى ما هو موجود وله طبيعة ما، والشر يرجع إلى كمال العالم. فقد قال أوغسطينوس: "إن جمال العالم العجيب يحصل عن جميع الأشياء، حتى إن ما نسميه شراً إذا أحكم ترتيبه وأجل محله، فإنه يزيد الخيرات بهاءً وجمالاً". انظر: توما الأكوييني. مصدر سابق. ص ٥٧٩-٥٨٠.

(Summa Theologiae, Ia, Qu. 49, art. 2). سوف يُردُّ الخلق إلى وحدة مملكة إذا لم يكن هناك "درجات من الخير"⁽¹⁾.

(1) Thiselton, Anthony C. *A Concise Encyclopedia of the Philosophy of Religion*. Art: Evil. P.86.

خاتمة:

في ضوء التناول الفلسفي واللاهوتي لمفارقة الخير والشر في ميتافيزيقا الدين عند القديس أوغسطين، نحاول في هذه الخاتمة تقييم وجهة نظره إزاء معضلة الخير والشر، كما يلي:

تعد مشكلة الخير والشر من المشكلات الميتافيزيقية التي ناقشتها الفلسفة والأديان في مختلف العصور. وقد أكدت المسيحية على وجود خير أسمى هو الله؛ لكن لا وجود لشر مطلق ينازع الله في الوجود. وكانت الإرادة الحرة شرطاً ضرورياً لجميع أنواع الخير، إلا أنها ليست شرطاً كافياً لتحقيقه، ومن ثمّ فالشر الذي يفعله البشر في نظر المسيحية يحقق هدفه من خلال التأكيد على حرية الإرادة الإنسانية.

وقد أثارت هذه المشكلة لدى القديس أوغسطين عدة تساؤلات دفعته إلى مناقشتها سواء في الفترة التي أمضاها منتبهاً إلى المذهب المانوي القائم على فكرة الثنائية، أو حتى بعد أن تحول إلى المسيحية. وقد أضاف في اعترافاته أنه كان في مرحلته المانوية يعمل على مخادعة الناس، ودفعهم نحو الشر، وليس غريباً أن يصف أوغسطين المرحلة التي عاشها قبل المسيحية بمرحلة تجسد فيها الشر في حياته، ولم يجد فيها ما يوحى ببعض الخير، ولهذا نجده في كتاباته المختلفة يعمل على التبرؤ مما كان يفعل.

ميز أوغسطين بين نوعين من الخير: الخير الأسمى أو الدائم الذي يختص به الله، وأنواع الخير العظيمة التي يفعلها البشر. فالشر إذن ليس جوهرًا بل إنه نقص الخير أو غيابه، وانحراف الإرادة المخلوقة عن الخير الثابت. فعندما أساء الإنسان استخدام هذه الإرادة وقع في الخطيئة الأولى، فجلب بذلك الشر الأخلاقي إلى العالم.

فالخطيئة في اللاهوت المسيحي تعني أن الشر الأخلاقي قد دخل إلى العالم نتيجة الإرادة الحرة، ومن ثمّ ففي كل مرة يرتكب فيها الإنسان خطيئة مهما كان شأنها، فإنه يجد مفهوم الخطيئة الأولى، وعلى هذا، فكل شر إما خطيئة أو نتيجة لها.

وقد حاول اللاهوت الأوغسطيني أن يقدم حلاً معقولاً للحكمة الإلهية من وجود الشر في العالم على اعتبار أن الخير هو جوهر الوجود الإنساني. رأى أوغسطين أن حكمة الله تعالى اقتضت وجود الشر، إذ إنه يجعلنا نعرف الخير، ونقف على حقيقته؛ فالخطيئة ليس بمقدورها أن تزيل الخير؛ لأن في إبطاله إبطالاً للوجود بأسره، حيث يصف الله على أنه الحقيقة الوحيدة، وأن الشر ليس حقيقياً، أو أنه مجرد خير جزئي.

فإنه أصل الخير ومصدره، والشر دخل العالم نتيجة خطيئة آدم. وقد بيّن الكيفية التي اكتسب بها الإنسان الشر بقوله: "لقد سقط في الخطيئة بواسطة المرأة". ولذا لوثت ذرية آدم، ولم تتسبب الخطيئة في سقوط الإنسانية فحسب، وإنما أفسدت نظام الطبيعة.

أرى أن هذا الحل غير مقبول؛ لأن الجنس البشري لا يمكن أن يتحمل خطيئة فرد. كما أن أوغسطين انتهى إلى القول بالثنائية كثنائية المانوية يكون الله فيها مصدر الخير، وآدم مصدر الخطيئة التي تلوثت بها البشرية.

بالإضافة إلى أن فهمنا لوجود الشرور في العالم يتجاوز حدود الإدراك البشري، فالعالم محاط بالعناية الإلهية، وإن كنا نعجز عن فهم ما يجري فيه، ففوائد بعض الأشياء خفية لغاية يريد الله تحقيقها. فكما قال فولتير: ما هو شر بالنسبة إليك، فهو خير في النظام العام. وهكذا نجد أن القديس أوغسطين يقدم معالجة لمشكلة الخير والشر ترفض التصور المانوي القائم على فكرة الثنائية، وينتقد المعالجات الفلسفية، رغم اعترافه ببعض الجوانب التي يمكن الأخذ منها، غير أن كمال المعالجة يراه في المسيحية.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر المترجمة إلى العربية:

١. أغوستينوس: اعترافات القديس أغوستينوس. نقلها إلى العربية: الخوري يوحنا الحلو. ط٤. دار المشرق. بيروت، ١٩٩١.
٢. القديس أغوستينوس: محاوراة الذات. نقله إلى العربية: الخور أسقف يوحنا الحلو. دار المشرق. بيروت، ٢٠٠٥.
٣. توما الأكويني: الخلاصة اللاهوتية. ترجمه من اللاتينية إلى العربية: الخوري بولس عواد. مج ١. المطبعة الأدبية. بيروت، ١٨٨٧.

ثانياً: المراجع العربية:

١. إمام عبد الفتاح إمام : الفيلسوف المسيحي.. والمرأة. سلسلة الفيلسوف.. والمرأة (٣). مكتبة مدبولي. القاهرة، ١٩٩٦.
٢. — : مدخل إلى الميتافيزيقيا. نهضة مصر. القاهرة، ٢٠٠٥.
٣. عبد الرحمن بدوي : فلسفة العصور الوسطى. ط٣. دار القلم. بيروت، ١٩٧٩.
٤. علي زيعور : أوغستينوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسيطية. دار اقرأ. بيروت، ١٩٨٣.
٥. فراس السواح : دين الإنسان: بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني. ط٤. دار علاء الدين. دمشق، ٢٠٠٢.
٦. —: الرحمن والشیطان: الثنوية الكونية ولاهوت التاريخ في الديانات المشرقية. دار علاء الدين. دمشق، ٢٠٠٤.
٧. محمد عبد الله دراز : الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. القاهرة، ٢٠١٤.
٨. يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. القاهرة، ٢٠١٤.
٩. يوسف كرم - إبراهيم مذكور دروس في الفلسفة. عالم الأدب للترجمة والنشر. بيروت، ٢٠١٦.

ثالثاً: المراجع المترجمة إلى العربية:

١. إيتين جلسون : روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط. ترجمة وتعليق: إمام عبد الفتاح إمام. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة، ٢٠١١.

٢. جاريث ب. ماثيوز أوغسطين. ترجمة: أيمن فؤاد زهري. العدد: ١٩٨٤. المركز القومي للترجمة. القاهرة، ٢٠١٣.
٣. روبرت س. بلمون : الدين من منظور فلسفي: دراسة ونصوص. ترجمة: حسون السراي. العارف للمطبوعات. بيروت، ٢٠٠٩.
٤. فردريك كوبلستون : تاريخ الفلسفة (من أوغسطين إلى دانتز سكوت). ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام وإسحاق عبيد. مراجعة وتقديم: إمام عبد الفتاح إمام. مج ٢. القسم الأول. العدد: ١٥٤٤. المركز القومي للترجمة. القاهرة، ٢٠١٠.
٥. لوك فيري : الإنسان المؤله أو معنى الحياة. ترجمة: محمد هشام. أفريقيا الشرق. بيروت، ٢٠٠٢.
٦. هنري تشادويك : أوغسطينوس. مقدمة قصيرة جداً. ترجمة: أحمد محمد الروبي. مراجعة: هاني فتحي سليمان. هنداوي للتعليم والثقافة. القاهرة، ٢٠١٦.

رابعاً: المراجع الأجنبية:

1. Herman, Arthur L. *The Problem of Evil and Indian Thought*. Motilal Banarsidass. Delhi, 1976
2. De Moor, Antti Laato and Johannes C. (Ed.). *Theodicy in the World of the Bible*. Leiden – Boston: Brill. 2003
3. Gardner, Iain & Lieu, Samuel N. C. (Eds.). *Manichaeon texts from The Roman Empire*. Cambridge University Press. New York, 2004.

خامساً: المعاجم ودوائر المعارف العربية:

١. أحمد عبد الحليم عطية : الموسوعة الفلسفية العربية. رئيس التحرير: معن زيادة. مج ١ (الاصطلاحات والمفاهيم). (د.م): معهد الإنماء العربي. ١٩٨٦.
٢. جميل صليبا المعجم الفلسفي. ج ١ (أ-ض). دار الكتاب اللبناني. بيروت، ١٩٨٢.
٣. عبد المنعم الحفني : المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة. ط ٣. مكتبة مدبولي. القاهرة، ٢٠٠٠.
٤. — : الموسوعة الفلسفية. القاهرة: مكتبة مدبولي. (د.ت).
٥. مراد وهبه المعجم الفلسفي. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة، ٢٠١٦.

سادساً: المعاجم ودوائر المعارف الأجنبية:

1. Audi, Robert. (Ed.) *The Cambridge Dictionary of Philosophy*. 2nded. Cambridge University Press. New York, 1999.
2. Norton, Anne Lucie (Ed.) *Dictionary of Ideas*. Brockhampton Press. London, 1997.

3. Reese, William L. (N.D). *Dictionary of Philosophy and Religion: Eastern and Western Thought*. Humanity Books. New York.
4. Taliaferro, Charles and Marty, Elsa J. (Eds.) *A Dictionary of Philosophy of Religion*. Continuum. New York – London, 2016
5. Thiselton, Anthony C. *A Concise Encyclopedia of the Philosophy of Religion*. University of Oxford. The United Kingdom, 2002.

سابعًا: الدوريات العربية:

١. برتراند رسل: *حكمة الغرب*. ترجمة: فؤاد زكريا. ج ١. العدد: ٦٢. عالم المعرفة. الكويت، ١٩٨٣.